مجلة الشهاب ● المجلد: 09، العدد: 01 (2023م) ● ص ص 91 - 108
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

علاقة الفرش بالصوت في القراءات العشر

The Relationship between the Manners of Pronouncing and the Sound in the Ten Recitation

عبد القادر بن فطة *
جامعة مصطفى اسطمبولي . معسكر (الجزائر)
abdelkader.benfetta@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2022/09/27 | تاريخ الاستلام: 2022/12/12 | تاريخ النشر: 2023/03/16

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:
الفرش والصوت صنوان في القراءات العشر حتى غدت لهما أهمية عظيمة ومنزلة جليلة لدى القراء يمثّلان لهم تحديا يتبارون فيما بينهم بتوجيه الكلمة بإحكام والجملة بإتقان، محاولين إفراغ كلّ ما لديهم من قدرات علمية وما تحتويه ملكتهم من معارف لغوية فيما يكتبونه ويصوغونه. فكتاباتهم في هذه المسالة تأسيسا لعلم من أرفع العلوم وأشرفها، وكان لا بد من أن يتّصف أصحابه بصفات خلقية إضافة إلى تمكّنهم من لغات العرب وتفوقهم في فهم أسرار لغة القرآن، كلّ ذلك يثبت أهمية الموضوع في حياة الأمة الإسلامية وما يأتي به من خير.
فموضوع الفرش والصوت في القراءات العشر تمتّع بمكانة رفيعة يغبط عليها المتعلمون يستلهمون منه أخصّ خفايا اللغة. فهو علم ناجع للتواصل؛ بل من أهم العلوم لتوصيل ذخيرة علمية نفيسة تمتّ إلى القرآن واللغة بصلة، يسعفنا في رسم معالم علاقة الفراش بالصوت والتعرف على خصائصهما وأصول بنائهما في فترة عرفت كبار القراء كنافع وعبد الله بن كثير والكسائي.

الكلمة المفتاحية:
لغة القرآن؛ الفرش؛ الصوت؛ القراءات العشر.

Abstract:
The manner of pronouncing and the sound are one of a pair in the ten recitations that have gained great importance and a majestic status among Quran reciters. They represent for them a challenge to compete by directing the word accurately and the sentence skillfully, trying to empty all their scientific abilities and what their competency holds of linguistic knowledge on what they write and formulate. Their writings on this issue laid the foundation for one of the most honorable and prestigious sciences, then it was definitely for these scholars to be distinguished by moral qualities in addition to their mastery of Arabs languages along with their excellence in understanding the secrets of the Quran language. All of this proves the importance of this topic in the life of the Muslim Ummah and the good it has brought to the language.

* المؤلف المراسل.

Both the manner of pronouncing and the sound in the ten recitations have a high-level position, which students are stuck with, drawing inspiration from the most subtleties of the language. It is a prosperous science of communication, even the most important one in conveying a treasurable scientific repertoire associated with the Quran and the language. It helps us draw features of the relationship of the manner of pronouncing with the sound and identifying their characteristics and the origins of their construction during a period that has known the greats reciters such as Al Nafii', Abdullah bin Kathir and Al-Kisa'i.
Keywords:
the language of the Qur'an ; Manner of pronouncing; ; Sound; The ten recitation.

1. مقدمة

إنّ التفاعل بين الفرش الصوت ذو أهمية في القراءات العشر لما يتّمتع به من امتيازات معرفية تجعل منه موضوعا مؤثرا ومشاركا في رسم كثير من القرارات التي توجّه دقّة المفردة وجودة العبارة. من هنا كان القراء حريصين على زيادة الحظوة لديهم بما يقدمونه من إبداع ومن قدرات على إفهام ما يحمله الفرش من ألطف لفظ وأعمق معنى وأوضح دلالة لينتزع إعجاب المتعلمين. ولكون القراء يعالجون موضوعا ضاربا في سرة القراءات القرآنية تطلّب منهم بالضرورة خزينا من المعارف الدينية واللغوية ليكون القارئ قادرا ومتمكنا من الربط بين الفرش والصوت بوضوح ودقّة تحققان التفاعل المنطقي بينهما.

والمتابع لمثل هذه الموضوعات يلمس سمات معيّنة تطبع نتاج القراء فتعطيه ملامح ومقاصد تحدّد شخصية كلّ قارئ بإضفاء صبغة علمية وتعزيزها بأحكام لغوية، إضافة إلى مقتضيات طبيعة الموضوع يعود إلى نوعية التعلّم المعتمد أساسا على ما تلقاه أهل الإقراء القائم على قاعدة ثرية من الرصيد العلمي قوامه القرآن الكريم وسنة فصحاء العرب.

واتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي للوقوف على مظاهر التفاعل المنطقي ين الفرش والصوت لدى القراء، لما له من تأثير على ذهنية المتلقي، لا يقف اعتمادهم على القرآن الكريم في بناء هذه العلاقة وترصينها، بل نهلوا من ذخيرتهم اللغوية. فكان يحلو لهم أن يحقّقوا البراعة في صورة الفرش بتوافق الوحدات الصوتية وتناسق مقاطعها لتغدوا قراءتهم نافذة في النفوس.

السؤال المطروح: هل تمكّن القراء بما أوتوا من ملكة عقلية على التعمّق في تجلية علاقة الفرش بالتشكيل الصوتي بالاتّكاء على استحضار مخزون حافظتهم؟

2 . مفهوم الفرش

1.2. لغة:

فَرَش الشيء يَفْرِشُه فرْشا، وفَرَشَه فانفرش وافْتَرَشَه: بسطه قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا**﴾ [البقرة20].[1] وفي الصحاح (الفَرْش: الزرع إذا فرّش، والفرش: الفضاء الواسع. والفرش صغار

[1] - ابن منظور (أبو الفضل جمال الديم)، لسان العرب، 326/6

الإبل. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ ﴾ [الأنعام: 142]. وافترش الشيء انبسط، وافترش ذرعيه: بسطهما على الأرض).[1]

2.2. اصطلاحا:

هو (ما يذكر في السور من كيفية قراءة كلّ كلمة قرآنية مختلف فيها بين القراء مع عزو كلّ قراءة إلى صاحبها ويسمى فرش الحروف وسماه بعضهم بالفروع مقابلة للأصول).[2] وعرّفه أبو شامة (665 ه): (القراء يسمونه ما قل دوره من الحروف، فرشا، لانتشارهن فكأنه انفرش إذ كانت الأصول ينسحب حكم الواحد منها على الجميع. وسماه بعضهم: الفروع على مقابلة الأصول، ويأتي في الفرش مواضع مطردة حيث وقعت وهي بالأصول أشبه منها بالفرش).[3]

ومن أمثلة الفرش قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَآءَ**﴾ [النساء 43].

فكلمة "لامسهم" قرأها حمزة والكسائي وخلف "لمستم" بحذف الألف فاللمس قد يقصد به الجماع واشترك فيه اثنان ويكون عن طريق الفم أو اليد. وقرأها ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو بالألف.

جاء في اللسان: قال ابن الأعرابي لمسته لمسا ولامستها ملامسة ويفرق بينهما اللمس، قد يكون معرفة الشيء بالشيء والملامسة أكثر ما جاء من اثنين. وقال: اللمس كناية عن الجماع، لمسها يلمسها، وكذلك الملامسة.[4]

أضاف التعريفان اللغوي والاصطلاحي إضافات قيّمة إلى الحركة القرائية التي تعدّ مستودعا من المستودعات التي اكتنزت ثراء فرشيا لوّنت القراءات العشر بألوان خاصة، ودفعت القراء إلى انتهاج منهج قرائي اختيرت له ألفاظ تحمل التفاعل الحقيقي مع التغيرات، تبرز في سياق علمي يعطيها القدرة على ردع الشاذ، وإكمال العمل القرائي بكلّ اقتدار والتوصّل إلى نتائج ثابتة لها أهميتها في تطوير المعرفة القرائية وتعميق مناهجها ومقاصدها.

3. الفرش والقراء العشر

اجتمع في القرآن أصل من عربيته الفصحى وقيمته الصوتية، ذلك ما دعا العلماء أن ينهلوا من روافده، نتج عنه امتداد يد القراء له فاستخرجوا جملة من كنوزه، فنشأت المذاهب بمكة والمدية والكوفة والبصرة والشام، وبدا العطاء العلمي فيهم، وأعطت كل مدرسة ثمارها في علم القراءات، هذه

[1] - الجوهري (إسماعيل بن حماد)، الصحاح، 1014/3

[2] - الضباع (علي محمد)، الإضاءة في بيان أصول القراءة، ص10

3. أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل)، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص 319

4. ابن منظور، اللسان، 209/6

الحركة نهضت فيها جمهرة من القراء، ولا غرابة أن تكون مرحلة التكوين والتأسيس لعلم القراءات. انطلق هؤلاء القراء العشر من فهمهم لمستوى الصواب اللغوي، وانتقوا ما كان في ميدان الفصيح مع السند والرسم (والحاصل أنّ السبع متواترة اتفاقا، وكذا الثلاثة: أبو جعفر ويعقوب وخلف، على الأصح؛ بل الصحيح المختار، وهو الذي تلقيناه من عامة شيوخنا وأخذنا به عنهم وبه نأخذ، وأنّ الأربعة بعدها: ابن محيصن واليزيدي والحسن والأعمش، شاذة اتفاقا.)[1] فجلّ هؤلاء القراء من الموالي منهم من تأثّر بالسمات اللهجية، ومنهم من تجاوز مظاهر النطق القبلي.

نزل القرآن في بيئة كانت للغة فيها موقعا متميّزا، توحّدت تحت ظلاله لغته وملكة أهل العلم بالمدينة ومكة، حدث تأثر بإعجازه بعد أن التفت قراء البيئتين إليه، فراحوا يتصيّدون المصطلحات اللغوية ليربطوها بمذهب قراءتهم. استطاع الحرميون من التفاعل مع لغة القرآن تفاعلا أصيلا، وهكذا تشكّلت قاعدة قرائية ببعدها العلمي، تجلى انبعاثها في الشيخين نافع وعبد الله بن كثير اللذين سبّعهما ابن مجاهد إضافة إلى أبي جعفر الذي أضافه ابن الجزري ضمن العشر. كلّ ذلك يسّر لهم أجواء البحث والتحليل في هدى الأجواء لعلمية التي حرصوا على استثمارها لرسم آفاق حركة الإقراء، فأنجزوا نظام الفرش الذي استحقّ موقعه في تاريخ علم القراءات، اتّسم منهجهم بأمارتين الأولى: الثراء اللغوي الذي تحصّلوا عليه بالاستقراء، أمّا الثانية فتتمثّل في بديهتهم التي هي ثمرة فطنتهم.

ومن قراء الحرميين نافع بن عبد الرحمن (169ه) كان إمام الهجرة، أخذ القراءة عن جماعة من تابعي أهل المدينة وروى القراءة عنه مالك بن أنس وإسماعيل بن جعفر (قرأ على سبعين من التابعين وهم من أهل الفصاحة والضبط والثقة بالمحل الذي لا يجهل.)[2]. فإيمانه بعظمة القرآن الكريم كان دافعا في توجيه جهوده في وضع الأسس العلمية للقراءات القرآنية، وتسهيل سبل الانتفاع بها، فعمل بروح علمية متّزنة في انتقاء الفرش الصائب والنهج الموضوعي، وممّا تفرّد به نافع قراءة كلمة أذن قال تعالى: ﴿**وَالْاُذْنَ بِالْاُذْنِ**﴾ [المائدة47] (قرأها بإسكان الذال (كالّهم ثقّل الأُذُن) إلا نافعا، فإنّه خفّفها في كلّ موضع من القرآن)[3] خفّف المضموم تجنبا لتوالي الثقل عن طريق الضمتين كذلك في المثنى ﴿**كَأَنَّ فِي أُذْنَيْهِ**﴾ [لقمان6].

كذلك عبد الله بن كثير (120ه) قارئ مكة فهو من الصفوة الماهرة في ميدان القراءات القرآنية، له ولاء علمي أصيل، ومعرفة واسعة بمذهب متكامل في قراءة القرآن الكريم، انكبّ على تحصيل كامل علاقة الصوت بالقراءات القرآنية، وتنميتها حتى صارت على يديه صرحا شامخا، حرص على الفرش بدقة عظيمة حتى يبقى شعلة متّقدة. من مظاهر الفرش عنده التحوّل الصوتي الذي يلحق الكلمات كتحوّل الضمة إلى كسرة قال تعالى: ﴿**وَلَيْسَ اَلْبِرُّ بِأَن تَاتُواْ اُلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا**﴾ [البقرة188] قرأ ابن

[1] - البنا (أحمد بن محمد)، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، ص7
2. أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي)، البحر المحيط، 471/4
3. ابن مجاهد (أبو بكر)، السبعة، 244

كثير (أُلْبُيُوتَ) بكسر الباء (إنّ الكسرة مع الياء أخف من الضمة معها، فاستثقل ضمة بعدها ياء مضمومة، والضمة مع ياء ثقيلة، فاجتمع حركتان ثقيلتان، وحرف ثقيل، عليه حركة، ثقيلة في جمع، والجمع ثقيل، فكسر الأول لخفته مع الياء، ولتقريب الحركة من الحرف الذي بعدها)[1] كذلك العيون والشيوخ والجيوب والغيوب.

كما اتسمت قراءته بانتقال حركة الكسرة إلى ضمة قال تعالى: ﴿**وَزِنُواْ الْقُسْطَاسِ اِلْمُسْتَقِيمِ**﴾ [الإسراء35] قرأ كلمة(الْقُسْطَاسِ) بضم قاف (يقرا بكسر القاف وضمها. وهما لغتان فصيحتان والضم أكثر، لأنه لغة الحجاز.)[2] أو تحوّل الضمة إلى الكسرة قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ اَنشُزُواْ**﴾ [المجادلة11] قرأ ابن كثير كلمة (اَنشُزُواْ) بكسر الشين من الفعل نَشَز ينْشُز ويَنْشِز هما لغتان، وأهل الحجاز يرفعون.

كما شدّد النون في آخر اسم الموصول والإشارة في المثنى قال تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَرِنَا اَلذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ اَلْجِنِّ**﴾ [فصلت28] (قرأ ابن كثير الذين بتشديد النون، والأصل: (اَلّلذَيَيْن) فحذف الياء وجعل التشديد عوض من الياء المحذوفة التي كانت في اَلذَيْنِ)[3] وفي اسم الإشارة قوله تعالى: ﴿**هَٰذَٰنِ خَصْمَٰنِ اِخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ**﴾ [الحج19].

ومن العشرة الذين ذكرهم ابن الجزري أبو جعفر المدني(128ه) أحد أعلام القراءة في عصره، له فضائل وافرة، لطيف في كلامه ذو علم وتقوى، وقف في قراءته على الصواب واجتنب الزلل، جاء الفرش وفق البغية، كان يلزم نفسه عناء التحقّق في قراءته ما جعله يقبل على القرآن إقبالا سليما أدى به إلى العطاء الأصيل.

من الظواهر الصوتية القراءة بين الضم والإسكان لعين الكلمة، وكان يؤثر الضم قال تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَة فَنَظِرَةٌ اِلَيٰ مَيْسُرَة**﴾ [البقرة279] ضم السين في (عُسْرَة) (قرأ عسرة بضم السين أبو جعفر)[4] وما شابهها (العسرى، اليسرى، يسرا، اليسر، العسر، العسرة) وهذا تفرّد قرائي لأبي جعفر وحده، والضم لغة الحجاز.

كذلك كلمة سحقا قال تعالى: ﴿**فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقا لِّأَصْحَٰبِ اِلسَّعِيرِ**﴾ [الملك 11] وردت مرة واحدة في القرآن الكريم شاركه في هذا التفرّد الكسائي (وقرأ الجمهور بسكون الحاء، وعلي، وأبو جعفر، والكسائي بخلاف عن أبي الحرث عنه بضمها)[5] والسحق هو البعد وينطق بالضم والإسكان مثال عسْر وعسُر والعنْق والعنُق، والنصب على وجه الدعاء عليهم لفعل مضمر أسحق، أصله إسحاقا

1. القيسي (أبو محمد مكي ابن أبي طالب)، الكشف عن وجوه القراءات، 284/2
2. ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين ابن أحمد)، الحجة في القراءات السبع، ص217
3. ابن خالويه، حجة القراءات، ص636
4. البنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر،458/1
5. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 295/8

لفعل أسحق الرباعي.

في ضوء هذا التسلسل التاريخي لحال القراءة ازدهرت حركة الإقراء بالكوفة، فكان مؤسسها منذ بداية تمصيرها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود الهذلي (32هـ) الذي انتدبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقراء الكوفة آثروا التمسّك بأداء القرآن على نحو ما أخذوه عن شيوخهم ممن تتصل أسانيد قراءتهم بالصحابة والتابعين من أهل الحجاز الذين احتضنتهم الكوفة، ومن غير الحجازيين فعاصم أبو نجود (127هـ) أخذ من العنصر الهذلي على عبد الرحمن السُّلمي الذي قرأ على ابن مسعود، وحمزة (158هـ) أخذ من جعفر بن محمد الصادق هذا العنصر الحجازي، أمّا غير الحجازي أي العنصر الكوفي فنذكر سلمان بن مهران الأعمش، والكسائي (189هـ) أخذ عن حمزة.

وضع الكوفيون لأنفسهم منهجا علميا لم يكونوا مجرد ناقلين أو جامعين بل تجاوزا الأغاليط، ملتفتين إلى بلورة اللغة تركيبا وتوضيحا لغوامض معانيها، مستعينين بالبديهة والسليقة ما جعل الفرش متناسقا ومنظما بعيدا عن الركاكة والاجترار. يقوم مذهبهم عل استيعاب مضامين النصوص، وتقصي الدلالة والوجوه المتنوعة للمفردة جعلت اجتهادهم مواكبا للمعجم اللغوي في القرآن الكريم، آخذين بلب ما حصلته اللغة العربية من تفاعل سليم مع الارتقاء اللغوي للقرآن، كان فضله عظيم للمخزون الحيّ من الكلم الذي تتجدّد فيه الحياة العلمية باستمرار مع التوسّع والاستقصاء وفق الحاجة، هيأوا منه صورة متكاملة ذات فاعلية ضاربة في أعماق القراءات القرآنية، فنعم مذهبهم بخصوبة راقية بغية إيصالها للأجيال اللاحقة كسَّدَنة للغة.

كما ظهر تأثرهم بالشيوخ الذين عاصروهم فمثلا حمزة أخذ عن الأعمش، وظهرت عليهم النزعة الحضرية يبدو جليا في ميلهم مثلا إلى التخفيف والليونة في النطق، اجتنبوا مظاهر البدوية كالتشديد والجهر والتغليظ مثلا في قوله تعالى: ﴿**لَوْ تَسَّوّىٰ بِهِمُ ٱلْاَرْضُ**﴾ [النساء 41] قرأ حمزة والكسائي كذلك إلا أنّهما خففا السين)[1] وفي قوله تعالى ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ**﴾ [آل عمران39] (قرأ حمزة، والكسائي (يُبَشِّرُكَ) في الموضعين في قصة زكريا وقصة مريم، وفي الإسراء، وفي الكهف وفي الشورى من بَشَر مخففا)[2]. كذلك اختزالهم الصائت الطويل إلى مصوت قصير وحذفه قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سٰحِرِ**﴾ [طه68] (قرأ حمزة والكسائي (كَيْدُ سَحْر) والحجة هي أنّ الكيد إذا كان بالسحر جاز أن يصاف إليه لأنّه به ومنه ومن سببه)[3].

كما برزت مدرسة البصرة التي عاشت أجواء حافلة بالناشط العلمي الدائب الذي تعكسه الطائفة الغزيرة من أهل العلم، فكان دافعهم الأكبر الاطلاع على الثروة الضخمة التي تمتلكها لغة القرآن الكريم، هذا أكبر مكسب يحرزه عليها علماء يهتمون بعلومه مما أتيح لهم التعرّف على

[1]. القيسي، الكشف، 1390/1
2. أبو حيان، البحر المحيط، 465/2
3. ابن زنجلة (أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد)، حجة القراءات، ص458

خصائص اللغة العربية لتنوير الأذهان والأذواق لاقتناء رصيد لغوي نفيس، واستجماع فوائدها، واستوعاب متحفه العلمي تكريما له. فانتعاش حركة الإقراء ورقيّها كان عاملين في إقبال القراء عليها بكلّ رغبة، وقد أغناهم القرآن بذخيرة هائلة من النتاج يصل بهم إلى ما يطمئنون إليه، ويثقون به، ثقة تقرّبهم من ذلك الطموح الدائب في تأصيل الفرش، وتجنبهم الانجراف وراء مصالح أنانية، يلتمسون موقعهم في علم القراءات. جاء مذهبهم تعبيرا عن قدراتهم العقلية التي أوصلتهم إلى بناء نسق يحدّد مكان الحرف في الكلمة والكلمة في الجملة عزّز مشروعيتهم، ورفع حجم التراكم المعرفي في الفرش الذي ورد مشحونا بمدارك اللغة وقضايا الصوت يكشف عن أصالة جهودهم المتميّزة، كان ابتكارا في خدمة القرآن الكريم. أفاضت مدرسة البصرة في مناحي الاجتهاد في شيخين هما أبو عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمي، فأبو عمرو بن العلاء (154هـ) أفاد من ذخائر سابقيه كأبي الأسود وتلاميذته خاصة علوم العربية وعلم القراءات، سمح له علمه أن يكون جوهرة القراء بالبصرة يعلّم الناس القراءة وأحكمها بمسجد البصرة (إنّ جماعة من أهل العلم بالقراءة كانوا في عصره، لكنّهم لم يبلغوه منهم عبد الله بن أبي إسحاق، وعاصم ابن أبي الصباح الجحدري، وعيسى بن عمر الثقفي، وكانوا أهل فصاحة ولم يحفظ عنهم في القراءة ما حفظ عن أبي عمرو وإلى قراءته صار أهل البصرة أو أكثرهم)[1]

من مظاهر قراءته التخفيف يظهر ذلك في الاختلاس أي ترك إكمال الكلمة والإتيان بثلثيها كما الأمر في قوله تعالى: ﴿بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة53] ﴿إِنَّ اَللَّهَ يَامُرُكُمُ﴾ [البقرة 66] ﴿إِنْ يَّنصُرْكُمُ اُللَّهُ﴾ [آل عمران 160] قرأ بارئكم ويأمركم وينصركم الاختلاس تجنبا لكثرة الحركات في المفردة الواحدة. كذلك التسكين فأبو عمرو كان يتخلى عن الحركة في مواطن منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم﴾ [البقرة 29] (وكان أبو عمرو يضم الهاء في (هُوَ) ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ مِنَ اَلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص 61] ويسْكنها في كل القرآن.)[2] ساكنة لأنّها مسبوقة بالواو ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوّ لَّكُمْ وَهُوَ مُومِن﴾ [النساء 91] وبعد الفاء ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ [البقرة73] ولام الابتداء ﴿وَإِنَّ اَلدَّارَ اَلاَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت 64] هذان الظاهرتان الصوتيتان تمثّل لهجة تميم التي ينتمي إليها أبو عمرو.

كذلك الإتباع الحركي أو التوافق وهو تأثر الأصوات بعضها ببعض أن يلتقي صوتان دون فاصل قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذ يَوَدُّ اُلذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ اُلرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّيٰ بِهِمُ اُلاَرْضُ﴾ [النساء 42] (قرأ أبو عمرو، ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلا) كسر هما لمجاورتهما الباء المكسورة (الحجة لمن كسرهما انّه كسر الهاء لمجاورة الباء والميم لالتقاء ساكنين.)[3].

إضافة إلى أبي عمرو تلميذه يعقوب الحضرمي (205 هـ) الذي كان عالما بالقرآن خبيرا باللغة العربية هو شيخ في القراءة، ثقة صفة تجعل العلماء يطمئنون إليه ويهتمون بقراءته، وللفرش أهمية

1. ابن مجاهد، السبعة، ص84. 85
2. ابن مجاهد، السبعة، ص150
3. ابن خالويه، الحجة، ص3124

في قراءته نصّ عليها أهل العلم قال عنه ابن الجزري: (قلت: ومن الأعجب من الأكبر الخطأ جعل قراءة يعقوب من الشواذ الذي لا تجوز القراءة بها ولا الصلاة، وهذا شيء لا نعرفه قبل، إلا في هذا الزمان، ممن لا يعول على قوله، لا يلتفت إلى اختياره...فليعلم أنّه لا فرق بين قراءة يعقوب، وقراءة غيره من السبعة عند أئمة الذين المحققين.)[1].

ما يميز قراءة يعقوب التغيرات في الأصوات منها حركة الهاء في التثنية والجمع قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة 6] قرأ يعقوب (عَلَيْهِمْ) بضم الهاء وإسكان الميم، فالضم هو الأصل فهي تضمّ في الابتداء (الأصل في عَلَيْهِمْ (عَلَيْهُمْ بضم الهاء وهي لغة الرسول صلى الله عليه وسلم.) (خالويه، 1985)[2] كذلك بكسر الهاء لتماثل حركة الحرف الذي قبلها أي الكسر قال تعالى: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة 92] قرأ يعقوب(قُلُوبِهِمُ)يكسر الهاء الميم وصلا.

إذا أرجأنا الحديث عن القراءات القرآنية في الأمصار والأقطار يجب أن نقف مع بيئة سجّلت حضورها بسيرة قرائها الذين جاءت جهودهم تتويجا لجهود غيرهم في البلاد الإسلامية ألا وهي بيئة الشام التي وردت قراءة قرائها من أروع القراءات في مسالة دقّة المفردات لتكاملها مع لغة القرآن العظيم، حافظوا على ولائهم لها، ولسنة الفصحاء، وبهذا ارتقوا بمذهلهم من كونه أداة للتميّز عن غيره إلى غاية سامية معبّرة عن مقاصدهم القرائية. استكملت هذه المدرسة إنجازها على يد شيوخها، وداوموا على حمل لواء القراءات القرآنية، فاستطاعوا أن يرتقوا في عقلانية إلى معرفة الكثير من صور الفرش النابعة من الوعاء العلمي للغة العربية المعبّر عن فهم النص القرآني. أسهمت في تعمّق البحث القرائي وسلامته اجتمعت لديهم مبادئ هذا العلم المحكومة بمنطق لغة القرآن الكريم، لا يشذون فيه عن المقاصد والنظرة الشاملة لشرف القراءات التي تنأى عن صخب التنافس.

ومن قرائها الذين اصطفاهم ابن مجاهد ابن عامر الشامي (118ه) كان إماما معدودا من أئمة القراءة، قراءته بذرة ودعامة علم القراءات، إذ وعى جذور هذا العلم، عرف بالضبط، وكان بصيرا بالقرآن الكريم، واسع الدراية، انتهت إليه مدرسة الإقراء بالشام، بجهوده الجبّارة التي بذلها في سبيل طلب هذا العلم الجليل استطاع أن يكوّن شخصيته العلمية، ويتتلمذ على يديه جملة طيّبة من طلبة العلم في الديار الشامية.

من التفرّد القرائي الذي تميّز بها ابن عامر قراءة لفظ إبراهيم قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة 124] (قرأ ابن عامر بالألف في موضع الياء ها هنا لأنه في السواد بغير ياء.)[3] أبدل ابن عامر الصائت الطويل الياء بالألف وروي أنهّ قرأها في جميع القرآن، وهي لغة الشام، والاسم معرب

1. ابن الجزري (أبو الخير محمد)، غاية النهاية في طبقة القراء،386/2
2. ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ص32
3. ابن خالويه، الحجة، ص88

أصله أعجمي. القراءة بالياء الأكثر ثمّ بالألف وهناك قراءة ثالثة بدون الياء والألف إبراهِم.

كانت حياة القراء العشر حافلة بالنشاط العلمي تعكسه هذه الطائفة من القراءات، فهي ثمرة ناضجة من ثمار ملكتهم، فالحواضر الإسلامية كانت تشهد ازدهارا عظيما في علم القراءات القرآنية. فآثارهم ثروة لغوية زاخرة جعلتهم مقصدا لطلبة العلم، وهم الذين أجمع جمهور أهل العلم على الوثوق بهم والأخذ بقراءتهم. ولعلّ من أروع اجتهادهم الذي هداتهم إليه ألبابهم، ونظرتهم المستوعبة للقرآن ما ورد في فرشهم الربط المستوى الصوتي للكلمة ودلالتها، نلمس فيه جانبا عظيما من الكياسة، ودائرة الأفق اللغوي. سجلوا ثقتهم المطلقة بالقرآن الكريم، وقدرتهم على نسيج الموضوعية بعد أن تمكّنوا من منهج سليم في قراءتهم، هذا إلى جانب الإسهام العلمي مما قرّبهم من النظام اللغوي للقرآن المجيد الموصل إلى الاطمئنان واليقين.

4 . أهمية الفرش والصوت في القراءات العشر:

لا شكّ في أنّ الوقوع على الفرش الدقيق مهمة صعبة لا يقدر عليها إلا من عرف اللغة العربية معرفة واسعة ووقف على ما بين المفردات والتركيب من فروق دقيقة، وسيطرة على هذا حدقة الفهم والتقرير والوضوح لتشكيل علاقة موضوعية بين التغيرات الصوتية والألفاظ الفرشية تشكيلا في تقريب المتعلم، حيث لا نجد في القراءات ألفاظا مستغلقة على الفهم. ما استعمله أهل الإقراء في فرشهم غير جاس ولا نافر بسبب الاستعمال الرشيد للمعجم اللغوي، لجعل العلاقة مع الصوت ذات عمق علمي يتيح للمتعلمين اقتفاء أثرها واستيضاح معالمها وإبراز مدى التوازن بين الفرش والصوت لإثبات الشرعية أكثر أصالة وفاعلية. فالتفاعل بينهما خاصية من خصوصيات علم القراءات مع تحجيم الروافد المعرفية، يأخذ هذا منحى تكون فيه لغة القرآن بمثابة البعد المهيمن عليهما بحكم إعجازه.

الاسترسال في تتبّع مسيرة القراء في جانبها العلمي يقودنا إلى حلقة أخرى من الحلقات المضيئة في إبداعاتهم وطرق البحث التي توصلوا عليها في تمتين التفاعل بين الألفاظ الفرشية والتغيرات الصوتية على أسس موضوعية رصينة دون أن يحذوا حذو أحد، فلئن تفاعلوا مع لغات العرب فإنّهم لم يقفوا عند حدود التلقي والتبني وإنّما محصوا ورفضوا كل ما يعترضهم من تعسّف لغوي، واختاروا توجّههم الخاص القائم على إيجاد معايير مستقلة بهم يحكمهم في ذلك ميزان العقل المتماشي مع روح القرآن. فعبقرية القراء تتجلى في وضع ضوابط ومقاييس لإخصاب العلاقة بين الفرش والصوت تساهم في إرساء أسس عديدة لمنطلقات اجتهادهم وتأسيس مدارس قرائية.

صاغوا الفرش حسب المراحل تبدأ بالملاحظة المباشرة للسياق تليها تفسير الظاهرة الصوتية ثمّ التأكيد على صحتها عن طريق النظام اللغوي، فيصبح لزاما على القارئ أن يغوص في عمق لغة القرآن لاستخراج الدرة التي يضمنها النظام الصوتي ومسابقة جرس الكلمات وتأشير مناطق التأثير المسكونة فيها (القيم الصوتية تلك الخصائص التي تتميز بواسطتها الأصوات ويتعلق بها نوع من المعاني يسمى

المعاني الطبيعية، التي لا توحي آثارها بأنّها عرفية ولا ذهنية لأنّها في الواقع مؤثرات سمعية ذات وقع على الوجدان.)[1]. استغلال القراء العشر لهذه العلاقة أضفى على قراءتهم جمالا خالصا، فقد أحسّوا بالانسجام بين الفرش والصوت، والتغيرات الطارئة على الصوائت والصوامت التي تتّضح من خلالها دلالة الكلمات.

أراد القراء أن يضعوا أيديهم على ما يمنحهم القرآن من وهج وإضاءة، تعزّز قناعتهم بأنّ المهمة العلمية التي ينجزوهما، تظلّ موجودة بالقوة تسجّل بزوغ عصر جديد في علم القراءات وبروز سلطة القراءة. فالقارئ لم يعد المستهلك الآلي الذي وصلت إليه لغات العرب دون أن يكون له دور في إعادة تشكيل محتواه، إنّه يغور داخل العلاقة بين الفرش والصوت لاستكمال صورتها كاملة يستهدي بالموجّهات القوية كالسياق والقرائن، ويستكشف نواة التفاعل وصولا إلى إيحاءات جمالية. إنّ استشراف قوة العلاقة ينبني على عزو المزية إلى استحداث المعاني بواسطة الألفاظ والانتباه إلى اللطائف الصوتية المستقاة من الإعجاز الصوتي.

إنّ قراءة القراء لهذه العلاقة غورية لا تكتفي بالسطوح؛ بل التمسوا تلك القوة التي تتّصف بها الكلمة أو الجملة في التأليف الصوتي، ونظام التوزيع في الجملة، وهذا يقيّد العلاقة باستغوار ما وراء النص الذي يبعث في المتعلم كوامنه، إذ ينتهي بفضله إلى نتائج باهرة على صعيد الصوت. فجعل القراء الظواهر الصوتية شرطا لجودة الفرش التي يمكن الاعتماد عليها في توجيه الدلالة كالفواصل الصوتية، واستجلاب الذوق الذي له جاذبية في تحديد مقام النغمات التي هي مصدره (للقرآن مسحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، ونريد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغنّاته، واتصالاته وسكتاته، اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أيّ كلام آخر من منظوم ومنثور[2].

إذا كان القراء اشترطوا جودة القيم الصوتية فإنّهم عدّوا الفرش الذي لا يفصح عن دلالته نازلة، كما ذهبوا على أنّ التنقيح أمر لازم يعلي من شأن التهذيب، ويجلب الملاءمة بين الألفاظ الفرشية والتغيرات الصوتية مع إثارة الصيغة التي يقتضيها السياق. ومثل هده الجودة كانت أحد بواعث الحركة القرائية الضخمة التي قامت حول هذه علاقة، وكانت سبب تجريح وحملة على القراءات الشاذة التي لوّن الهوى والتعصّب صدور أصحابها، فهي تستجيد السخيف وترذل الرصين، شذّ هؤلاء عن المتواتر ورفعوا من شعار التعصّب ففي فرشهم الشنيع الظاهر الذي يندّ عن المألوف. استعملوا في الفرش ما يلائم السياق ويجري على قوانين كلام الفصيح، إذ لم تكن القبائل العربية فصيحة؛ بل كان بعضها موثوقا بكلامها وبعضها مطرحا لا يؤخذ بما يروى من صيغ واستعمالات، أدى هذا إلى إهدار المستقبح من الكلام والحكم عليه بالشذوذ والندرة، وعدم السماح بالتكلم به. والمتأمل في مذاهب

1. تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص257
2. الزرقاني (عبد العظيم)، مناهل العرفان، 208/2

القراء يجد أنّهم سلكوا سبيل التسامح في رواية الكلام المنطوي تحت أقيسة اللغة رغبة في توسيع مجال إثراء علاقة، ولتعزيز المستوى الصوتي أوردوا أحيانا في المفردة جميع ما أثر فيها من لغات العرب.

إن القراء رغم اختلاف مذاهبهم في القراءة أدركوا قيمة هذه الصلة، وتيقّنوا أنّها مركز قوة في السياق، وأكثر إثارة فهي تنسق بين أجزاء النص، وتميّز بينها في الأهمية من خلال توضيح الأصوات، وتشخيص الكلمات، ورسم الجمل. فهذا الربط وجد في القرآن الكريم مساحة لبلوغ ثلاثة أبعاد صوتية، ودلالية، وجمالية لاستيطان الشعور وتجسيده، والتماس الوجدان والتفاعل مع صور الإبداع المنبعثة من عمق النص القرآني. فتلذذ القراء بجوانب الجمال وما يحيط به من ظواهر صوتية وما ينتجه من آثار بارزة تعرّضوا إليها في قراءاتهم لتربية النفوس، وجعل القارئ يتسامى بقراءته إلى مستوى عال من الأداء. توسعت العلاقة بين الفرش والصوت في القراءات العشر نتيجة موضعها الحصين في صلب لغة القرآن، وجذبت العلماء تجنّد قدراتهم للزيادة في إنتاجهم العلمي. فهي ثمرة انبثقت من الإعجاز القرآني فعجلت بزوال التعسّف اللغوي للعرب، فكان الانتقال من لغة غير منتظمة إلى لغة أكثر ثباتا وأقلّ تعقيدا، فظهورها ليس مجرد الزيادة في عدد ألفظ اللغة العربية إنّما إلى تغيير شامل وتشكيل جديد يعدّل من خواص المنظومة اللغوية.

أهمية هذه العلاقة أنّها ترعرعت ونمت في كنف القراءات القرآنية، فهي لم تنشأ بصورة عفوية بعضها ميّت وبعضها حيّ إنّما وضعت كوحدة أرقى وأرفع من غيرها، نلمس فيها عبقرية القراء من خلال معالمها الجليلة التي تدل على ضرورة الاعتراف برقيّها والذي يدركها متذوّق العربية، وهذه الخاصية تجري في آيات القرآن الكريم في تناسق كامل. لقد توالت الحقب حتى وقتنا هذا استنبط خلالها العلماء تنوّعا هائلا من الدلالات، فانعكس اهتمامهم بها في مذاهبهم العلمية حتى شملت تفاصيل دقيقة عن استقلالية هذا الربط، فاعترفوا برقيّه ودوره في الأداء، فركّزوا على روعة تصميمه ودقّة فنيته وطابع المرونة، إذ هو ضمن أنساق بديعة داخل أسوار السياق أخرجت الدلالة من قواقعها ووّسعت مقاصدها.

5. الفرش والصوت في ضوء نماذج من القراءات العشر

حفل القرآن الكريم بهذه العلاقة لخدمة الدرس اللغوي، وجد فيه القراء سبيلا للإحاطة بما نفعهم خاصة على المستوى الصوتي. فمسألة الفرش والصوت ضرورية في القراءات القرآنية، لأنّ القرآن احتوى على كلمات خالفت النظام اللغوي الذي ألفه العرب، سواء أكانت متفردة أو لها ما يقاربها في الدلالة. أبدى القراء نضجا لغويا في إطار قرآني يكشف عن اضطلاعهم بتصريف شؤون اللغة في استيعاب جزئياتها في جدية، فأعطت كلّ مدرسة ثمراها الهائلة نهض بها جمهرة من أهل العلم، فكان نصيب مكة تكوينا ومدرستي الكوفة والبصرة تأصيلا ثمّ امتدّ الشعاع النيّر إلى بقية الحواضر تدريجيا هذا ما نلمسه في هذه النماذج.

1.5 الصوامت:

ما يلفت الانتباه في القرآن الكريم في علاقة الفرش بالأصوات في فواتح السور، إنّ التناسب قويّ بين الأصوات المنتقاة، الطبيعة الصوتية للحروف المقطعة ذات دلالة إيحائية فهي متنوّعة في عدد حروفها من حرف حتى خمسة أحرف، وهذا ليس اعتباطيا وإنّما هناك ملمح إلى الإيجاز الصوتي في توظيف هذه الأصوات هي جامعة بين المهموس والمجهور، الشدّة والرخاوة، انفرادها بهذه الخصائص الصوتية زادت السياق جمالا، وما نشير إليه هو أنّ هذه الحروف منطوقة وليست مرسومة (سائر الحروف المقطعة في فواتح السور فكلّها تنطق بأسماء تلك الحروف أصواتا، لا بأشكالها الهجائية المرسومة، مما يقرب منها البعد الصوتي المتوخى.)[1]

عندما نقف عند السور المشكّلة من ثلاثة أصوات من ذلك قال تعالى: (طسَمَ) القصص1 (قرأ حمزة والكسائي: طِسَمَ بكسر الطاء، وكذلك عاصم غي رواية أبي بكر.)[2] اختيار هذه الأصوات يتماشى والسياق الكلّي للسورة لما تتميّز به من خصائص صوتية. (الطاء) مجهور شديد أمّا (السين) فهو مهموس رخو و(الميم) مجهور متوسط. وعند النظر إلى هذا اللفظ نجده مسايرا للسياق الصوتي الذي ورد فيه من حيث نوع الصفات فقد اجتمعت من القوة الشدّة والجهر، ومن الضعف الرخاوة والهمس. وغلبة الشدّة كانت الدعامة التي ارتكز عليها التخويف في السورة، المتكلم قد يهمس في أذن المتلقي بصوت خفيف، وهذا ما ينطبق على الصامت (السين) حتى طبيعة المقطع له والمشكّل من ثلاثة مقاطع طويلة مغلقة التي تعكس جو السورة المتمثل في الإنذار والتعذيب. على الرغم من اختلاف مواقف القراء من القراءة تبعا لاختلاف مذاهبهم ومناهجهم في الفرش والصوت إلا أنّ ما اختلفوا فيه يمكن حصره وتوضيح جوانب الاختلاف حوله، فموقفهم أكثر انسجاما مع طبيعة اللغة.

ظهرت مهارة القراء في التأليف بين الألفاظ الفرشية والتغيرات الصوتية والقدرة على التوزيع والتنسيق ابتداء بنافع قارئ المدينة، مرورا بالكسائي وذخائر مؤلفاته وقراءاته، ووقوفا عند أبي عمرو بن العلاء. وقد نسجوا الألفاظ من الأصوات اللغوية التي تخصّها، وجرت في صياغتها من مقاطع صوتية فخصّت الأفعال والأسماء بأبنية معيّنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضَّآلِّينَ**﴾ [الفاتحة7] كلمة (الصراط) بالصاد قرأت بها الجماعة (قرأ ابن كثير في رواية القواس السراط وسراط بالسين)[3] وأجمع أهل اللغة قديما وحديثا على أنّ أصلها أعجميّ، فالقدامى ردّوها إلى الروم بيد أنّ أغلب المحدثين خالفوا هذا الرأي (ذهب أغلب المحدثين من اللغويين أنّ أصلها لاتيني وهو ستراتا.)[4] وفي تعريبها مال العرب إلى التفخيم فأبدلوا التاء طاء، وعدّ المحدثون

[1]. غانم قدوري، رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، ص 132
2. ابن مجاهد، السبعة، ص470
3. ابن زنجلة، حجة القراءات، ص80
4. فاضل السامرائي، فقه اللغة المقارن، ص177

الطاء مهموسة (التجارب الحديثة برهنت على أنّ الطاء كما ننطق بها الآن صوت مهموس وأنّ نظيره غير مطبق هو التاء.)[1] هذه الكلمة متميّزة في تركيبها الصوتي الصاد صوت مهموس لكنّه يتّصف بالتفخيم من بين أصوات الصفير، إضافة إلى الاستعلاء والإطباق، والراء تكراري بيني ويفيد التكثير، والطاء يشارك الصاد في الإطباق والاستعلاء. وما يلاحظ على فونيم الصاد أنّه الأصل في الكلمة لانسجامه مع الطاء وهذا التقارب في الكلمة يعزّز الدلالة. والبناء الصوتي لها مركّب من مقطعين قصيرين ومقطع متوسط مفتوح، فإذا أخذناها في سياقها وجدنا بنيتها المقطعية تظهر صلاح المؤمنين في الدنيا لبلوغ صلاح المعاد.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة247] اختلف القراء في كلمة(بسطة) (كلّهم قرأ بالسين، غير أنّ الكسائي ونافعا، مما روي عن المسيّبي، روى عنهما بالصاد وفيه بالسين قرأت لهما الجماعة.)[2] والمعروف في اللغة أنّ الكلمة تتكوّن من حروف الهجاء، قد تكون متّفقة في المخرج، أو من مخرجين متغايرين، وقد تكون صفتهما غير متّحدة. فالسين والصاد صوتان لثويان احتكاكيان مهموسان، النطق بالصاد يلائم الحرف المجاور (إنّ الطاء حرف مستعل يتصعّد من مخرجها إلى الحنك، ولم يتصعّد السين تصعدها فكره التصعّد من التسفّل، فأبدل من السين حرفا من مخرجها في تصعّد الطاء؛ فتلاءم الحرفان.)[3] إلاّ أنّ الصاد مطبقة، ترك النطق أثره في رسم الحرف لكن دون تأثير في الدلالة. الكلام عن طالوت الذي أكرمه الله بالسعة والقوة (ومن المعلوم أنّ الصاد أقوى من السين وأظهر فكأنّ السين الذي هو أضعف أليق بالشخص الواحد والصاد الذي هو أقوى وأظهر أليق بالقبيلة.)[4] الفرش بالفونيمين يعود إلى الصورة النطقية، فهما أظهر في الإفادة غير مجافين لسياق النص الذي وردا فيه، إذ البسطة بالسين والصاد منتظمة في الإطار التصويري ينسجم مع شخصية طالوت، فلم يفرط القراء في عقد الفرش في الصائتين في العبارة القرآنية. لهما صدى مقويا له فوائده في فضح سوء ظن بني إسرائيل بالله، وجهل فضل مقدار ما خفي في اصطفاء طالوت.

ارتقى القراء بالفرش إلى مستوى عال لا تعسّف فيه؛ بل هو دال على قيمته الدلالية، ودقّة استعماله، فكان له معجمه الخاص الذي تفرّد به. ولا شكّ أنّ انتهاء الإقراء إلى التفاعل مع مفرداته من خلال إعجازه، ورعاية ضوابطه في التفسير التي لا ينبغي تخطّيها، ومن الظواهر اللّغوية الأكثر وضوحا في القرآن الكريم الحذف الذي وقف عنده القراء عند التّلاوة باستظهار القرائن التي توحي إلى المحذوف، مما يسهّل على القارئ التعرّف على موطن الحذف، وتهديه إلى التقدير، فإدراك مواقعه

1. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص63
2. القيسي، الكشف، 302/1
3. الفارسي (أبو علي) الفارسي، الحجة للقراء السبعة، 347/2
4. السامرائي فاضل، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص54

يزيل الشّك، ويجعل المتلقي في موضع الكشف.

للحذف أسرار صوتية تمثل موقعا من الإعجاز البلاغي، ويظهر ذلك في حذف حرف أو كلمة في موقع وذكره في موقع آخر وهذا كله لحكمة، ومن وجوه الإعجاز الاستغناء عن المحذوف الذي يعدّ من الفضول والحشو يترفّع عنهما التعبير القرآني الراقي من ذلك حذف الهمزة في الفعل (أخذ) قال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [التوبة 103] الأمر أوخذ؛ لكنّها ثقيلة في النطق فجاء حذف الهمزة للخفة. أمّا التعليل الصوتي (ننجّي ينجّي)، فدخلت على الفعل المضارع نون دلّت على الجماعة، فأصبحت (ننجّي) (فالتقت النونان المتحركتان في الفعل المضارع، مشددة العين، فاستثقل اجتماعهما، وهما متحركان فمالوا إلى التخفيف من هذا الثقل بحذف النون.

أو حذف إحدى التاءين من المضارع قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء1] (قرأها حمزة وعاصم والكسائي مخففة.)[1] حذفت إحدى التاءين، فأصل الكلمة (تتساءلون) وهذا لتجنب اجتماع المثلين، ولم تحذف التاء الثانية لأنّها دالة على المضارع. ومن الناحية الصوتية فهناك تقارب بين السين من التاء في المخرج، وهذا يسبب ثقلا في النطق ولو بقيت التاء الثانية لتوالت ثلاثة أمثال.

عني القراء بالإيقاع السمعي للحروف، والجرس الناغم في الكلمات واسترسلوا في ملاحظة القيمة الصوتية، وترشّحت في خاطرهم مباحث صوتية من نظراتهم الثاقبة، وفكرهم النيّر أملته عليهم طبيعة البحث اللغوي، فكان للحرف إطار خاص وللألفاظ معان متأصّلة في القرآن الكريم، وهم في ذلك لم يخرجوا عن المنهج اللغوي للقرآن، واستعانوا على فهم الآية بأختها، وكشف النص بالتفسير، وتدوين اللغة من الإعجاز والفصاحة النبوية وسنة الفصحاء.

2.5 الصوائت:

كان منهج القراء مع الصوائت موضوعيا يكشف عن العمق الدلالي للكلمة، وما نطقت به السليقة، خضعت للقيم اللغوية التي أقرّها القرآن الكريم، بعيدة عن الغريب والمصنوع. وردت متميّزة بالجدّة متجاوزة العرف الجاهلي تنحو منحى الإعجاز، تسير على وتيرة تحت قانون توازن الدلالة والمقصد، حاملة الممارسة الذوقية والجمال التعبيري. قدّمت حقائق صوتية جديدة، ومفاتيح نيّرة لاقتحام باب البحث اللغوي تؤدي إلى آفاق كانت غائبة عن العقل، يستنبط منها أهل اللغة ما هو أقرب إلى السداد يثرون بها المعرفة اللغوية.

تابع أهل الإقراء اجتهادهم لاستقراء معاني المفردات من آي القرآن الكريم، يستهل بالموضوع الرئيس للآية فتتداعى له الدلالات، وتتدفّق المقاصد بنمط بديع مسايرا للسياق هذا ما اهتدى إليه في

1. العكبري (أبو البقاء)، التبيان في إعراب القرآن، 700/2

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِيّنَاتٍ قَالَ الّذِينَ كَفَرُواْ لِلّذِينَ آمَنُوَاْ أَيّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ [مريم 73] (مّقَاماً) بالفتح (قرأ بها عاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي وأبو عمرو ونافع ويعقوب.)[1] من الفعل قام يقوم قوما وقياما ضد جلس والمقام المكانة الرفيعة، فيها الخفّة لإبلاغ المتلقي بما يهدف إليه القارئ أسهل السبل اقتصادا في المجهود العضلي، هذا المذهب الصوتي تطلبا للتوافق الحركي وقد مرِن العرب به وجروا عليه. أمّا ابن كثير فخرق الإجماع فقرأ بالضم من الفعل أقام يقيم، فتجشّم المشقّة، وراهن على الصعبة ليروم المطلب كأنّه أراد أن يعرب عن بيان المعنى في وجود الضمّة التي توحي إلى خير الحياة والمقدرة. ففي الفرش يرد بما يجده القارئ في المسألة التي يريد أن يعرض لها ويحكم الصواب حسب ما يعتقده على أسس مذهبه، وبما يمتلكه من حجج. فتغيّر الفونيمين انعكس على تغيّر الدلالة، ومن الواضح أنّ هذا الاختلاف ارتبط بالسياق الذي حدّد شكل الصائت الذي عبّر بموجبه عن العلاقة المباشرة عن المراد.

الكُره والكَره قال تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء 19] كلمة (كَرْهاً) (قرأ الحرميان وأبو عمرو وبفتح الكاف، حيث وقع، حمزة والكسائي بضمها وعاصم وابن عامر بفتحها في هذه السورة.)[2] المعنى بين الكلمتين متقاربة (وقد أجمع كثير من أهل اللغة أنّ الكَره والكُره لغتان فبأي لغة وقع فجائز.)[3] (الكُره) بالضمّ حسب السياق المشقّة ويكون من الخارج، وبفتحها هو ما كان مفروضا من الغير. اختلاف الفونيمين كان له أثر في تباين الدلالة، الصائت (الضمّة) ثقيل ينسجم مع ثقل ومشقّة الإكراه المنبعثة من النفس، فالمتوفى عنها زوجها غير راضية إذا تزوجت لمن لا ترضاه حتى لا تصبح سبية له. والصائت (الفتحة) خفيف يحمل الإجبار من الخارج إذ يعضل الولي المرأة صاحبة المال أن تتزوج خشية ذهاب الإرث للبعل والأولاد، ما يلاحظ على فرش الكلمة أنّ القراء لم يتعسّفوا ويحمّلوها مالا تحتمل، فينحرفوا عن جادة المعنى. وقف أهل الإقراء عند الفهم المقبول الذي له سند قويّ من نص القرآن أو لغته، مع العلم أنّ هذه الآية نزلت في عادة شنيعة كانت شائعة في الجاهلية وهي نكاح ما نكح الآباء.

ومن الإعجاز الصوتي الذي تفرّد به القرآن في علاقة السياق بالصوت تدخل ضوابط الرسم العثماني في تحديد الدلالة من خلال حذف أو ذكر الصوائت في بعض الكلمات، والمتأهل في الدور الذي ينهض به الصائت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمّ ذَٰلِكَ اَلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدي لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة1] (قرأ السبعة إلا ابن كثير بحذف الصائت الطويل الياء في فيه (قرأ ابن كثير يصل هاء الضمير بياء لفظية، والباقون بترك الصلة.)[4] ابن

1. ابن زنجلة، حجة القراءات، ص 446
2. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 212/3
3. ابن منظور، اللسان، 534/13
4. المحيسن محمد سالم، المهذب في القراءات السبع،46/1

كثير أشبع الهاء لأنّ أصلها (فيهو) فقلبت الواو ياء لمجانستها الكسرة قبلها، والهاء الغائب للمفرد الغائب متصلة بحرف الجر (في) فوصل الياء هذه حجة ابن كثير. أمّا قراءة البقية فبدون إشباع مادامت الكسرة تدلّ على الياء قال أهل البصرة: (إنّما حذفت الياء لسكونها وسكون الياء التي قبلها، لأنّ الياء الهاء ليس بحاجز حصين ن فكأنّ الساكن قبلها ملاق للساكن الذي بعدها فتحذف الياء، ألا ترى أنّها إذا تحرك ما قبلها لم تحذف منها الياء نحو:" أمه... وصاحبتِه:")[1]

هذا مذهب السلف أمّا المحدثون فلهم رأي آخر ربطوه بالفونولوجيا بالاعتماد على المقاطع الصوتية (ومن المخالفة الصوتية ما يسمى بالمخالفة الكمية بين المقاطع الصوتية ومن أمثلة ذلكما يحدث لحركة ضمير المفرد الغائب، في العربية الفصحى فالأصل في هذه الحركة، هو الضمة الطويلة، وتحدث له المماثلة الصوتية مع الكسرات قبله ...)[2]

بلغ القرآن الذروة في إبراز أثر الصوائت الطويلة في إظهار الفرق بين الكلمات، وهذا الأثر يختلف من سياق إلى آخر تحقيقا للدلالة المراد التعبير عنها، كما اختلف القراء في فرش كلمة يخادعون في قوله تعال: ﴿**يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يُخَٰدِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة 8] (قرأ الكوفيون وابن عامر (يُخَٰدِعُونَ) بألف مع ضم الياء وفتح الخاء وكسر الدال، والباقون بغير ألف فتح الياء والدال.)[3] يُخَادِعُون من الفعل خادع أي يكون الخداع النفس، أمّا يَخْدَعُون من الفعل خَدَع مصدره الخَدْع، فالخادع يوهم غيره نفعه، إنّما يريد به المكروه. فالصامت الطويل غيّر دلالة الكلمة، انتهى القراء إلى فهم المفردة بعد سبر ووعي لدقّة استعمالها في القرآن الكريم، هذا يؤكّد على الحس اللغوي لدى أهل الإقراء، رَقِي الفرش الذي سلكوه في هذا السياق في تحديد المعنى. والذي نراه أنّ التعامل مع هذا المصوّت الطويل لا تعسّف فيه، بل يومئ إلى ما تحمله الكلمة من قيمة دلالية، إذ ينبغي ألا ننكر أنّ للقراءات القرآنية معجمها الخاص.

إنّ الربط بين الفرش والصوائت معادلة كاملة في القراءات القرآنية أخذت قوة الشدّ التي ملكت على القارئ بواعث التوجيه وهو في رحاب القرآن الكريم، فالينابيع الصافية لهذه العلاقة ذخيرة من ذخائر التراث التي احتفظت بهذا القدر العظيم من جهود القراء الذين حملوا أمانة هذا العلم، ونهضوا بأعبائه التي تبدوا معالمه بالغة الغور، تدور في صميم علم الرواية، لا تستعصي على أفهام طلبة العلم.

1. ابن زنجلة، حجة القراءات، ص83
2. انظر عبد التواب رمضان التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، ص267
3. الداني (أبو عمرو)، التيسير في القراءات السبع، ص 276

6. خاتمة

أدرك القراء أهمية الفرش والصوت، فاستظهروا مضامينهما وتعمّقوا في مقاصدهما لتنشئة الذوق اللغوي وتعلّم الأسلوب الرصين تجنبا للزلق في التأليف، وتحقيق المنهجية الذكية. فدرجة الكمال لفصاحة كتاب الله أغنت العلم وأثرت المعرفة، وكوّنت شخصية المسلم وأبعدته عن الركود والنمطية، فلا عجب أن تكون هذه العلاقة ذات قيمة ساطعة في تاريخ القراءات القرآنية ظلت مشّعة إلى رؤية بارزة مشحونة بالدلالات الراقية التي تسبح في فلك الحقل اللغوي.

نالت هذه العلاقة من ذوي الكياسة والذوق والقدرة اللغوية الراقية اهتماما كبيرا، فلم يكن يقنعهم كل ما يطرق سمعهم من المنقول؛ بل كانوا يتنخلونه بنظر ثاقب أمدّهم بفيض من الفهم السليم لآي القرآن الكريم على ما أوتوا من ملكة على التعمق في علاقة الفرش بالصوت، وإدراك ما وراءها من دلالات ومقاصد، وكانت عنايتهم بالقرآن الكريم وإعجازه ذات باب واسع ينفتح على مباحث متنوعة. فتحوا على المتعلمين باب خبر يصيبون في فهم كتاب الله ويستوعبون دلالته.

6. 1. النتائج:

- الفرش والصوت عنصران اتّسع مداهما في أعماق القراءات القرآنية، لا يقفان عند تصوير الكلمات، إنّما يثير نفحة علمية لترسى لدى المتعلم قاعدة لغوية دقيقة يبنى عليها الشطر الأكبر في فهم القرآن الكريم.

- الجمال الصوتي والرقيّ الدلالي في هذه العلاقة أماط اللثام عمّا جفاه الاستعمال العربي، وتنكّأت له ألسنة المشركين، فاستمال حواس المتلقي لمتابعة مسار المجرى الأدائي العام المبني على الزخم اللغوي المكثّف، والقدرة على توزيعه فيه، وتطويع ذوق الطامح إلى كسب إحساس خفيّ يومئ إلى عمق العلاقة.

- القارئ ينتقي التشكيل الصوتي للكلمات لتؤدي وظيفتها في تصوير الدلالة وتوضيحها، كما نلمس ترشيح الكلمة بصوامتها وصوائتها على غيرها في موضع الذي يناسبها حتى توفي حقّها.

- المتمعّن في القراءات القرآنية المتواترة يجد الارتباط التام بين الفرش والصوت، فالكلمات تلائم أصواتها لأنّها متوجّهة إلى غاية محددة، فهي تعدّ ضرورة في السياق بالنسبة للكشف عن المعاني الجزئية والمقاصد العامة.

6. 2. التوصيات:

- الاهتمام بالتفرّد القرائي، وترشيد الباحث إلى الاقتراب من القراءات القرآنية المتواترة.
- التقريب بين ملكة السلف ونباهة الخلف في التكامل المعرفي لتأمين آفاق القراءات القرآنية.
- تعزيز المعجم الألفاظ الفرشية وتوظيفه في إعلام الناشئة بضرورة التواصل النوعي الفعّال معه.
- توفير الحماية للقراءات القرآنية بعد انتشار الأفكار المسيئة الطاعنة في شرفها.
- إقامة تفاعل إيجابي تعليمي مباشر مع هذا العلم يتمركز في شخصيتنا ودفعه لإعطاء السلطة المطلقة.

7. قائمة المراجع

- ابن الجزري، أ. ا. (1980). غاية النهاية في طبقة القراء، تحقيق ب. جستراسر، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن خالويه، أ. ع. (1399). الحجة في القراءات السبع، تحقيق ع. ا. مكرم، بيروت: دار الشروق.
- ابن خالويه، أ. ع. (1985). إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- ابن زنجلة، أ. ز. (1418). حجة القراءات، تحقيق س. الأفغاني، مؤسسة الرسالة.
- ابن مجاهد، أ. ب .(د.ت) .السبعة، تحقيق ش. ضيف، مصر: دار المعارف.
- ابن منظور، أ. ا .(د.ت) .لسان العرب .بيروت: دار صادر.
- أبو حيان، م. ب. (1413). البحر المحيط، تحقيق أ. ع. معوض، بيروت: دار الكتب العلمية
- أبو شامة، ع. ا .(د.ت). إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق إ. ع. عوض، بيروت: دار الكتب العلمية.
- أنيس، إ. (1952). الأصوات اللغوية. القاهرة.
- البنا، أ. ب. (د.ت). إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر. بيروت: دار الندوة الجديد.
- الجوهري، إ. ب .(1399) .الصحاح، تحقيق أ. ع. عطّار، بيروت: دار العلم للملايين.
- حسان، ت .(1413) .البيان في روائع القرآن .القاهرة: عالم الكتب.
- الداني، أ. ع. (1436). في القراءات السبع، تحقيق خ. ب. الشغدلي.
- الزرقاني، ع. ا. (2003). مناهل العرفان. بيروت: دار الكتب العلمية.
- السامرائي، ف. (1987). فقه اللغة المقارن. بيروت: دار القلم الملايين.
- السامرائي، ف. (د.ت). بلاغة الكلمة في التعبير القرآني. القاهرة: شركة العاتك للنشر.
- الضباع، ع. م. (1420). الإضاءة في بيان أصول القراءة. المكبة الأزهرية للتراث.
- عبد التواب، ر. (1417). التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- العكبري، أ. ا. (1407). التبيان في إعراب القرآن، تحقيق ع. م. البجاوي، بيروت: دار الجيل.
- الفارسي، أ. ع. (1411). الحجة للقراء السبعة، تحقيق ب. ا. حويجات، دار المأمون
- قدوري، غ .(1982) .رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية .العراق.
- القيسي، أ. م. (1430). الكشف عن وجوه القراءات، تحقيق م. ا. رمضان، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- المحيسن، م. س. (1417). المهذب في القراءات السبع. المكتبة الأزهرية للتراث.